

العرب أول الفلكيين

لأستاذ عبد الحق فاضل

وشيء شبيه بذلك يمكن ان يقال عن قدامى
ابناء النيل الذين اتضح من الدراسات الحديثة
للفتهم انهم ساميون ، اي عرب .. بعد ان كان المظنون
انهم حاميون وهؤلاء أيضا عرب لكنهم ابعد نسبا اي
اقدم عهدا بمغادرة الجزيرة العربية . بل لقد اثبتت
لنا دراستنا اللغوية ان الاربين أيضا ينتمون الى هذه
الجزيرة العربية المقفرة الولود !

غير ان الذي نقصده بقولنا ان العرب اول
الفلكيين هو ان سكان المعربة (= الجزيرة العربية)
قد كانوا على درجة فائقة من الاهتمام بمراقبة النجوم
والعلم بحركاتها المتشابكة ومواقيتها الدورية منذ
العهود الحجرية المجهولة .. قبل عهود التدوين
وقبل اختراع الكتابة وقبل ان يتحضر النيليون
والرافدانيون بالوف السنين .. اي منذ نحو عشرة
آلاف سنة .. ان لم نقل اكثر !

هذه الحقيقة المذهلة تخبرنا بها اللغة على كل
حال .

ان لفظة (الآن) تعني الوقت ومنها (الاوان) .
والفعل هو (أن أينما) اي حان الوقت و (أن اونا)
اي تمهل في المشي ، وأصل المعنى قضى وقتا في المشي
اي من معنى الوقت أيضا .. ولا سيما ان (الأين)
كذلك يعني التعب ، الذي يسبب التمهّل في المشي .

نعم ، انما نقصد ان نقول انهم (اول) الفلكيين
في التاريخ الانساني ، على ما يظهر ، لا اعظمهم شأنًا
ولا ابعدهم صيتا ، لان بعد صيتهم وعظمة شأنهم
في العلوم عامة وعلم الفلك خاصة ، خلال عصور
الازدهار الاسلامية ، منقبة لم يعد يجعلها الا جاهل .

ومن بقايا تجوابهم واستكشافاتهم في القارة
السماوية ، خلفوا لنا من آثار اقدمهم في اللغات
الاوربية عددا كبيرا من الالفاظ العربية كاسماء
النجوم ومصطلحات الفلك ، ومنها في الانكليزية
مثلا : Algedi (الجدي) ، Altair (الطائر) ،
Algieba (الجبهة) ، Algenib (الجنب) ،
Aldabera (الدبران) ، Betelguese (منكب الجوزاء) ، Nadir ... (النظيف) ،
Zénith (السم ، سمت الرأس) ، Azimuth (السموت ، سمت السموت) ...

كذلك لا نقصد بقولنا ان العرب اول الفلكيين
حتى الاكديين العرب (وهم قدامى البابليين) بالرغم
من ان ابناء الرافدين هم الذين وصلتنا منهم اقدم
المعارف الفلكية مدونة ومدرسة ، وهي اساس
تقسيماتنا الزمنية الحاضرة للسنة والشهور
والساعات ... بالاضافة الى معرفتهم سبع كواكب
سيارة ومن عددها هذا قسموا الايام اسابيع ...

وقد تطور (الأون) فصار ينطق مقلوبا (النوء) . وما يؤيد ان (الأون) كان يعني الوقت قديما هو ان مقلوبة المستحدث منه اي (النوء) ما زال يعني (الآن) في الانكليزية بصورة (now)

وقد كان من معاني (النوء) عند العرب: سقوط نجم من المنازل في المغرب وطلوع رقيبته وهو نجم يقابله من ساعته في المشرق في كل ليلة الى ثلاثة عشر يوما . وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ما خلا الجبهة فان لها اربعة عشر يوما . . . والآنواء كانت عندهم ثمانية وعشرين معروفة المطالع في ازمة السنة كلها يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة (1) نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعتهم وكلاهما معلوم مسمى . وانقضاء هذه الثمانية وعشرين كلها مع انقضاء السنة ثم يرجع الامر الى النجم الاول . وكانت العرب في الجاهلية اذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لابد من ان يكون عند ذلك مطر او رياح فينسبون كل غيث يكون عند ذلك الى ذلك النجم فيقولون « مطرنا بنوء الثريا او بنوء الدبران » - (المنجد - مادة : نوء)

وليس من المعقول ان القوم الذين لهم كل هذه المعرفة الدقيقة عن (الانواء) ليست لهم معرفة دقيقة اوسع نطاقا في شؤون فلكية اخرى ، وانما هذا شأن اناس كانوا يرقبون النجوم ويرصدون حركاتها ومواضعها خلال ايام الحول ويحددون العلاقات المعقدة بين بعضها وبعضها في المكان من رقعة السماء وفي الزمان من مدار السنة . . بطريقتهم يسعنا مطمئنين ان نسميها (علمية) . وان كان في معلوماتهم شيء من خطأ فتلك سجية (العلم) دائما . وستاتي اجيال تجد في علم جيلنا هذا الكثير من الاخطاء في الفلك وغيره .

ولسنا ندرى الآن الى اي حد كانوا يستفيدون من هذه المعرفة الفلكية في حياتهم العملية بالاضافة الى اهتمامهم بها في اسفار البراري وملاحاة البحار ، لكننا نعلم ان امثال هذه المعلومات الفلكية ما زالت من

المعارف العامة في مختلف انحاء الجزيرة العربية حيث يتحدث حتى الرعاة والعامه من الناس عن حركات النجوم ومواعيدها ويقرنون بها المواسم المناخية والنباتية والحيوانية والتجارية والصحية . . .

والاغلب ان هذا تراث موروث عن الجاهلية .

لكن اصطلاح (الجاهلية) انما يعني العهد العربي الوثني القريب من عهد ظهور الاسلام . فالى اي امد يمكننا ان ندفع هذه المعلومات الفلكية الثمينة الى وراء ؟ الف عام ؟ الف عام ؟ ثلاثة آلاف ؟ . .

ثم من الذي يقول ان هذه المعرفة من استنباط العرب انفسهم لا من مقتبساتهم عن جيرانهم المصريين والاكديين ؟

اللغة هي التي تقول ذلك . بل انها تزعم ما هو ادعى الى الدهشة والعجب . تزعم ان المصريين والاكديين هم الذين اقتبسوا معارفهم الفلكية الاولى عن ابناء المعربة الاقدمين !

يظهر من القرائن الترسيية في البحث اللغوي (2) ان العرب استعملوا كلمة (الآن) ايضا بمعنى النوء ، ولا غرابة في ذلك فان المعجم العربي حافل بالالفاظ التي تحمل المعاني المتشابهة والمتواشجة والمغلوبة والمتضادة مما يعرفه كل ذي المام ولو يسير بهذه الامور . فمن معنى تمام السنة عند عودة النجم (النوء) الاول الى الظهور اطلقوا على السنة كلمة (الآن) . وان كان هذا المعنى قد ضاع من الكلمة بصيغتها هذه في عريتنا المعجمة الباقية فان صيغتها هذه (آن an) بنفسها ما زالت تعني السنة في الفرنسية ! اما في العربية فقد صارت تنطق (عام) !

ومن معنى تجدد الانواء استعملوا كلمة (النوء) بمعنى الجديد ، وهي باقية بهذا المعنى في الفارسية بصيغة (نو - new) ومنها (نوروز) : اليوم الجديد ، اي راس السنة . وتنطق الكلمة في الانكليزية (نيو - new) ويؤثلونها (= يؤصلونها) من

(1) في الاصل ثلاثة عشر ليلة ، وهو من الاغلاط الطبيعية فيما يظهر .

(2) الترسييس طريقة لنا في دراسة اللغة تعني البحث عن رس الكلمة اي بدايتها منذ نطق بها الانسان الاول تقليدا لاحد الاصوات الطبيعية ، مع تعقيب تطورات الكلمة حتى اصبحت على الصيغة التي تشكلت بها في معنى حديث قد يكون ثقافيا راقيا . وقد اوضحنا ذلك بعنوان « علم الترسييس » في مجلة « اللسان العربي » - الرباط - العدد : 5 غشت (آب) 1967 .

السكونية (neowe) وقد وردت قبل ذلك في الاغريقية بصورة (نيوس - neos) وفي اللاتينية بصيغة (نوفوس - novus) ، وهي في الايطالية (نوفه - nove) وفي الفرنسية (نوفوه - nouveau) . ومعلوم ان حرف السين زائد في آخر الكلمتين الاغريقية واللاتينية يلحق بالاسماء عندهم ، وصلب الكلمة فيهما النون والواو فحسب .

ومن معنى الرياح والتغيرات الجوية ظهرت في بعض الدارجات العربية صيغة (النو) - بتشديد الواو - بمعنى الحالة او الطور او المزاج .

وظهرت كلمة (التنوع) تعبيراً عن كل ذلك فصار العرب ينطقون (النوء) بالعين (النوع) - على طريقة بعضهم في العننة - بمعنى الصنف ، على اعتبار كل (نوع) جديداً او مفايراً لسواه من الانواع ، ومن هنا كان (التنوع) يتضمن شيئاً من معنى التجديد والتغيير . و (النوع) تشبه صيغة (نو) - المشددة - بالدارجة ، وصيغة (نو) - المخففة الساكنة - بالفارسية .

ومن هذا المعنى توجد في الانكليزية (novel) التي تعني الطريف والنادرة والقصة ، و (novelty) التي تعني البدعة والطرافة .. وكلاهما من الفرنسية وتنطقان فيها nouvelle و nouveauté وهما من nouveau (جديد) المنحدرة من اللاتينية المذكورة آنفاً .

ومن معنى الامطار التي كانوا يعتقدون انها تقتزن بتبدل الانواء صار (النوء) منذ العهد الجاهلي يعني في العربية المطر . و (علم الانواء) يعني عندنا اليوم علم تعرف الاحوال الجوية وله في كل قطر خبراء وديوان مخصوص يرتبط بالملاحة الجوية على الاخص

ومن معنى الرياح والامطار صار البحارة العرب منذ القدم فيما يبدو يطلقون (النوء) على اعاصيرهم وتقلبات اجوائهم البحرية ، وهذا هو مفهوم الكلمة اليوم عند سواد القراء مما يدل على اثاله . وادل من ذلك على اثاله هذا المفهوم الملاحي لكلمة (النوء) هو انها تعني السفينة في الفارسية بصيغة (نساو) ! وهي في الاغريقية (naus) ، وفي اللاتينية (navis) ، وفي الفرنسية (navie) ، وفي الايطالية (nave) . ومنها في الانكليزية (navy) اسطول او قوة بحرية ، و (naval) اسطولي او سفيني .

ومن معنى السفينة في العربية (النوتي) « ملاح السفينة في البحر خاصة » .

وهذه الالفاظ بمعانيها المتطورة من لفظة (النوء) ومن معاني مجموعة الانواء وتجدها وارتباطها على قولهم بمناخ الارض - حديثة طبعاً بالنسبة الى (النوء) الذي استحدثت منه . ولا ندري كم من الاجيال انقضت حتى استحدثت هذه الالفاظ من النوء لكن الاغلب انها كانت اجيالا طوالاً . واقدام من (النوء) كلمة (آن) التي تعني السنة في الفرنسية ، والتي من لفظها نشأت الفاظ : العام والاون والنوء نفسه .

والذي يعتقد الباحثون ان الجزيرة العربية كانت غابة كثيرة الماء والنبات والحيوان والانسان ثم اخذ الجفاف يعمها منذ عهد انقضاء الحقبة الجليدية الاخيرة اي قبل نحو عشر الف سنة .

والذي نراه شخصياً ، بل الذي ارتنا اياه اللغة ، ان (الآريين) هم اوائل العرب المهاجرين الذين نزحوا من معربتهم منذ اخذ يكتسحها الجفاف والمحل وانطلقوا الى العراق ومن ثم هاجر بعضهم الى ايران وما وراءها واستقر الباقون في العراق ، كما انطلق آخرون الى سورية حيث استقر من استقر واستمر في الهجرة من استمر غرباً الى مصر وما وراءها ، وشمالاً الى البر الاناضولي وما وراءه ، اي اوربا . فنحن لا نعتقد ان جميع الآريين قد قدموا اصلاً من الهند او اواسط آسيا ، بل لا بد ان الكثيرين منهم قدموا راساً من المعربة في موجات مختلفة عن طريق آسيا الصغرى وشمالى افريقيا (ناهيك بالساحل السوري الذي انطلق منه الفنيقيون فيما بعد في كل اتجاه) .

ثم كانت هجرة (الحاميين) الى افريقيا شماليها وشرقيها .

ثم كانت هجرة (الساميين) الى الهلال الخصيب وشرقي افريقيا .. فاستقروا مع من كان قد استقر من اسلافهم المهاجرين الاوائل في العراق وسورية ومصر والحبة .

ولا نستطيع الآن تحديد هذه الهجرات فهي متوالية ومختلطة ومتشابكة ومتعددة الازمنة ومختلفة الاتجاهات ، تكسب بعضها فوق بعض واندماج بعضها ببعض . الا انه كان من نتيجة المخيض هذه المجموعات اللغوية الثلاث : الآرية والحامية والسامية ، التي

يتضح مما تقدم انها مجموعات مكانية اكثر منها زمانية ، تمثل هجرات عربية قديمة امتزجت وتفاعلت على مدى الاجيال . وكل ما نعلمه ان تلك الهجرات بدأت منذ بدا المحل يلتهم الجنة الميرية قبل اكثر من عشرة آلاف سنة . وثمة حقيقة تاريخية خطيرة أخرى يمكننا ان نستشهد بها لتؤيد لنا هذا الامر وهي ان التحريات التنقيبية في العراق تنبئ ان هذا التاريخ يتفق مع بدايات عهد الاستقرار السكني في ارض الرافدين وبناء المساكن المتقاربة في جماعات بشرية زراعية - اي بداية تأسيس الحضارة . وذلك فيما يظهر اول عهد الانسان بانشاء القرية . ثم المدينة . (مع احتساب القرون التمهيدية التي لا بد ان يكون المهاجر العربي قد قضاها قبل ان ينتقل من حياة الترحل الى حياة الاقامة)

وبتعبير آخر ان اولئك المؤسسين هم العرب الاوائل الذين استوطنوا العراق بينما استمر شطر منهم في المسير شرقا عبر بلاد فارس او شمالا عبر الاناضول ، فكانوا اوائل الآريين . وكون الآريين شعبة من نفس القوم الذين اسسوا الحضارة الرافدانية يبرئهم من وصمة العجز عن انشاء الحضارة ابتداء ، ولو انهم في الواقع قد اقتبسوا كل حضارة لهم قديمة في الشرق الآسيوي والغرب الاوربي من حضارة اخوانهم في وادي الرافدين ، على ما يقول الباحثون .

فما دامت تلك الالفاظ البحرية والزمانية - التي اعتبرناها حديثة بالنسبة الى كلمة (النوء) - موجودة في اللغات الآرية فمعنى ذلك ان العرب قد عرفوا (الانواء) الفلكية ، لانقول بتلك الدقة الجاهلية حتما ولكنهم عرفوا على كل حال شيئا عن تعاقبها وعلاقاتها التي منها انبثقت تلك الالفاظ - قبل ان ينسلخ الآريون من المجموعة العربية في المنطقة ، منذ عشرة آلاف سنة . او اكثر . ولو وجدت هذه الالفاظ في الآريات الآورية فقط لجاز القول انها قد تكون حديثة الاقتباس عن طريق الكنعانيين (الفنيقيين) مثلا ، لكن وجودها في نفس الوقت في الفارسية وهي

لغة آرية اصيلة (وليست فرعاً من السنسكريتية كما كان يعتقد سابقاً) يدل على قدم هذه الالفاظ ودخولها الآريات منذ عهد الهجرات الاولى ، ولعلها موجودة في السنسكريتية ايضا ، لكن فقدان المراجع لدينا في عربيتنا الراهنة يحول دون تحققنا من ذلك .

فهل من غرابة ان ينبغي من العرب بعد ذلك انباؤهم من الرافدانيين والنيليين في هذا الفن ويخلفوا لنا اقدم القواعد المعروفة لعلم الفلك ويصبحوا اساتذة البشرية فيه ؟ ولا غرابة من ثم ان يطلق الشمريون (السومريون) لفظة (آن) على قبة الفلك نفسها أي السماء وهي اعظم الالهة (أبو الالهة) عندهم وعند اخلافهم الاكديين الذين كانوا ينطقون الاسم (آنو) - بضم آخره على طريقتهن .

قلنا مرارا ، ونقولها مرة اخرى : ان درس اللغة اشبه بعلم التنقيب الآثاري ، قادر على ان يكشف لنا حتى مالا يستطيع التنقيب الآثاري نفسه ان يكشفه من الحقائق التاريخية المجهولة التي خرجت عن متناول المنقب الا انها لاتزال في متناول اللغوي وحده . لان ابناء الغابة الميرية لم يسجلوها في مسطورات لهم كتابية ولا نقوش جدارية ولا صور كهفية ولا شقف من الفخار . وانما سجلوها لنا تسجيلاً مفيداً عفواً في لغتهم ، وانصرفوا .

وهذا الامر الذي تقدم بنا حديثه يمثل واحدة من الحقائق التاريخية - بل القبتاريخية - الخطيرة ، التي انعم علينا بها (الفوص) في (بحر) اللغة .

ليت المرحوم حافظ ابراهيم يعلم اية نبوة اعجازية قذف في مسمع الدهر ساعة حكى لنا ان اللغة العربية دام عزها قالت ذات يوم :

انا (البحر) في احشائه للركامن

فهل سألوا (الفواص) عن صدقاني؟

(نزيل المغرب العربي) عبد الحق فاضل